

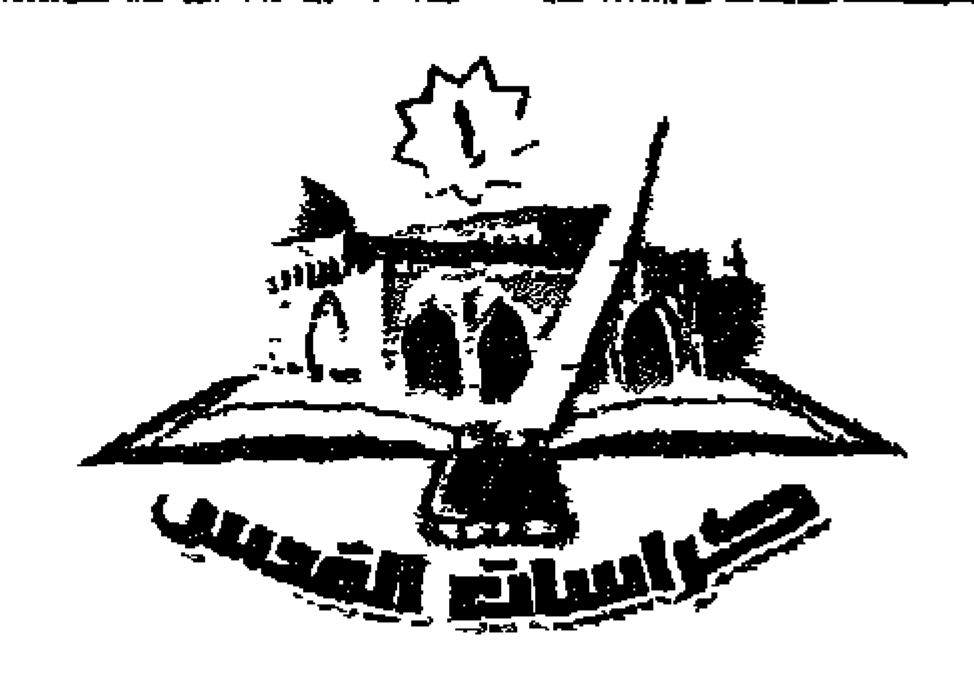
الطريق إلى حطين والقدس

د. أحمد صدقي الدجاني

إهـــــــداء ٢٠٠٦

مركز الإعلام العربي

القاهرة



الطريق إلى حطين والقدس

د. أحمد صدقي الدجاني





الإخراج الفني

أحمد عبد المنعم

الغلاف

إيهاب عبد الله



• الكتاب:

الطريق إلى حطين والقدس

• تأليف:

د. أحمد صدقي الدجاني

• السلسلة:

قراءات القدس

• قياس الصفحة:

١٢×١٧

• رقم الإيداع:

٨١٤٩ / ٢٠٠٤م

ص. ب ٩٣ الهرم ـ الجيزة ـ مصر

• هاتف: ٣٨٣٣٣٦١١ / ٣٨٤٤٤٢٢

• التوزيع: ٧٤٤٥٤٥٥

• فاكس: ٣٨٥١٧٥١

• الموقع على شبكة الإنترنت:

www.Resalah4u.com

• البريد الإليكتروني:

E .Mail:media-c@ie-eg.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

يسعد مركز الإعلام العربى أن يفتتح سلسلة «كراسات القدس» بهذه الدراسة التى سطرها المفكر الفلسطينى الراحل الدكتور/ أحمد صدقى الدجانى، والتى جاءت تحت عنوان: «الطريق إلى حطين والقدس».

ولعل قيام «لجنة الحفاظ على تراث أحمد صدقى الدجانى (رحمه الله)»، باختيار مركز الإعلام العربى لنشر هذه الدراسة من جديد هو تكريم للمركز الذى كرَّس جل همه للقدس وللأقصى كرمز وجوهر للقضية الفلسطينية.

لقد سبق للمركز أن افتتح سلسلته الأولى عن القضية الفلسطينية «كتاب القدس» بكتاب الراحل الكبير «الخطر يتهدد بيت المقدس»، ثم عاد ونشر فى نفس السلسلة كتابه الثانى «القدس وانتفاضة الأقصى وحرب العولمة»، وهو بعد نشره لهذه الدراسة يُعِدُّ لجمع ونشر كل ما كتبه الراحل الكبير عن القدس..

نسأل الله أن يتغمد فقيدنا، وفقيد فلسطين، بواسع رحمته ويسكنه فسيح جناته، وأن ينفع أمته بما كتب، ويجعله عملاً موصولاً له بالدنيا.

□ صلاح عبد المقصود

الطريق إلى حطين والقدس

إحياء الذكرى بعد ثمانية قرون

مقدمـة الكتـاب

الحمد لله فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، الذى أقسم بالعصر، وخلق الإنسان صاحب فكر ورؤية مدركًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وأسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وبارك أرض فلسطين، والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله وخاتمهم محمد بن عبد الله الذى رأى من آيات ربه الكبرى، أما بعد..

فهذه أحاديث بدأ كتابتها المفكر الفلسطينى الكبير أحمد صدقى الدجانى (طيب الله ثراه)، فى صيف عام ١٩٨٧ الميلادى بمناسبة مُضِىّ ثمانية قرون ميلادية على يوم حطين ويوم القدس.

وقد نشرت فى صيف ١٩٩١م مطلع عام ١٤١٢هـ فى كتيب حمل هذا العنوان «الطريق إلى حطين والقدس إحياء الذكرى بعد ثمانية قرون» ونشرته دار البشير فى عمان، واليوم وبعد رحيل المفكر الدكتور (طيب الله ثراه) وتشكيل لجنة للحفاظ على تراثه تحمل اسم «لجنة الحفاظ على تراث أحمد صدقى الدجانى»، والتى اعتمدت عددًا من الخطط قريبة المدى وبعيدة المدى، ومنها إعادة طبع الأعمال التى لم يتم

نشرها بعد، وكذلك إعادة طبع الأعمال التى شارفت على النفاذ، وارتأت اللجنة أن تعيد طبع هذا الكتيب مجددًا - بعد نفاذ الكمية التى سبق طبعها - لما فيه من قراءة مهمة معاصرة لحروب الفرنجة، قراءة تستحضر عبر التاريخ وإحسان التعامل مع الحاضر وصنع المستقبل.

ولأن عنوان هذا الكتيب، وكذلك فحواه يتعلق بالقدس، جوهر قضية الأمة والإنسانية المركزية الأولى... كان اختيار اللجنة **لمركز الإعلام العربى**، لإعادة طبع هذا الكتيب، وهو المركز الذى كرس جل همه للقدس وللأقصى كرمز وكجوهر للقضية الفلسطينية... **ولأن المغفور له كان أحد رعاة هذا المركز، وعضو الهيئة الاستشارية لمطبوعته الشهرية «مجلة القدس»**... فإن هذا يكون تكريمًا آخر من **مركز الإعلام العربى**، وإسهامًا فعالاً فى حفظ إرث هذا العلم وهذا **المفكر الكبير أحمد صدقى الدجانى (رحمه الله)**.

نرجو أن يجد القارئ الكريم فى إعادة نشر هذا الكتيب ما ينفعه، ونسأل الله التوفيق والسداد فى القول والعمل، والشكر لمركز الإعلام العربى إدارة وعاملين.

لجنة الحفاظ على تراث

أحمد صدقى الدجانى (رحمه الله)

■●■

١ـ عن إحياء ذكرى يوم حطين

أبدأ بكتابة هذه السطور بعد البسملة فجر يوم الرابع من تموز/ يوليو من عام ١٩٨٧ الميلادى فى ذكرى «يوم حطين» الذى حدث قبل ثمانية قرون، وقد أمضيت ساعات طويلة خلال الشهور الثلاثة الماضية أقرأ كل ما تقع عليه يداى من كتب عن حروب الفرنجة - وهو كثير كثير - وأتأمل فى أحداث هذه الحروب على ضوء أحداث عصرنا.

أبدأ بالكتابة ونصب عينى ذكرى «يوم القدس» فى الثانى من تشرين أول/ أكتوبر القادم. وبين اليومين ثلاثة شهور صيفية حفلت بالأحداث فى عام ١١٨٧ الميلادى، فكانت من فترات التاريخ الفاصلة التى تستحق الدراسة المتعمقة.

أبدأ الكتابة وفى نيتى أن أُسطِّر عصارة قراءاتى وتأملاتى أداءً لواجب الإسهام فى إحياء ذكرى مضى ثمانية قرون على يومى حطين والقدس. وهو واجب يتحمل كل مُنتمٍ إلى الحضارة العربية الإسلامية نصيبه منه.

● ● ●

إن حاجتنا لهذا الأحياء ملحة، كى نحقق تواصل المعرفة التاريخية لأجيالنا الجديدة، ومن أجل أن نوفر لأنفسنا الحد

الأدنى اللازم منها، والحق أن ما نعرفه عن حروب الفرنجة التى امتدت حوالى قرنين بفعل غزوهم لوطننا أقل بكثير مما ينبغى أن نعرفه عنها. وذلك لأن مناهجنا التعليمية فى المدارس لا تعطيها حقها، ولأن مساجدنا تكتفى بالعموميات، ولأن صحافتنا تمر بها مرور الكرام، ولأن محافلنا تخصص لها القليل، وهكذا بقى ما تعرفه الغالبية العظمى منّا عن هذه الحروب عامًا لا تفنيه التفاصيل، وهو يتضمن شيئًا عن يومى حطين والقدس، ولكنه لا يوفيهما حقهما، ولا يتطرق إلى أيام أخرى قبلهما وبعدهما، كما أنه يحتوى على القليل عن صلاح الدين ولكنه لا يتمثل سيرته، ويكاد يجهل كل شىء عن نجومنا الأخرى من أبطالنا التى سطعت فى سماء تلك الحروب.

مطلوب إذن أن نولى اهتمامًا خاصًا لهذه الحقبة من التاريخ، فهى فى تاريخنا العربى الإسلامى متميزة، ولعلها تحتل المكان التالى لحقبة البعثة والخلافة الراشدة، وهى بمنظور أحداث عصرنا ومواجهتنا للغزو الصهيونى الغربى تكتسب أهمية مضاعفة، ومن هنا ينبغى أن يعرف كل منا أحداثها، ويحفظ سير أبطالنا فيها وبخاصة سيرة صلاح الدين واسطة العقد وشمس الشموس.

لقد أدرك **العماد الكاتب الأصفهانى** وهو يقدّم لتاريخه «**الفتح القسى فى الفتح القدسى**» مكانة هذه السيرة، فشبهها بالهجرة النبوية التى أرّخ بها المسلمون، واعتبرها هجرة ثانية؛

لأنها «هجرة الإسلام إلى بيت المقدس»، وأرّخ بالفتح القدسى ليحفظ لنا تاريخًا مجيدًا. وكان الأصفهانى واعيًا بأهمية التاريخ للبشر «فلا أمة من الأمم ذوات الملل، وذوات الدول، إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه، ويعوّلون عليه، ينقله خلفها عن سلفها، وحاضرها عن غابرها، تقيد به شوارد الأيام، وتنصب به معالم الأعلام. ولولا ذلك لانقطعت الوُصَل، وجهلت الدول، ومات فى أيام الأُخر ذكر الأول، ولم يعلم الناس أنهم لعرق الثرى، وأنهم نُطف فى ظلمات الأصلاب طويلة السرى، وأن أعمارهم مبتدأة من العهد الذى تقادم لآدم. وقد أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم لما أرادوه من ظهورهم.... ولولا التاريخ لضاعت مساعى أهل السياسات الفاضلة، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هى الفاصلة، ولقل الاعتبار بمسألة العواقب وعقوبتها، وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها، وما وراء كهولتها من صعوبتها».

ويدرك عدونا الصهيونى اليوم بمنظور أحداث عصرنا الأهمية المضاعفة لهذه الحقبة، ولذا نراه مشغولاً بدراستها، ويصل الأمر به إلى أن يحيى ذكرى يوم حطين على طريقته كى لا يغفل عن أهمية التاريخ، ويحاول الاستفادة من دروسه وعبره فى ما يخططه من عدوان، وما يقترفه من جرائم.

• ماذا نستهدف من قراءة تاريخ حروب الفرنجة اليوم؟

هناك أولاً الهدفان الثابتان من كل قراءة تاريخية؛ أعنى المتعة والفائدة. وهناك ثانيًا هدف التفكر فى أحوالنا الراهنة، والتأمل

فى أحداث عصرنا وصولاً إلى بلورة أفكارنا بشأن ما ينبغى عمله فى مواجهة الغزو الصهيونى الغربى لوطننا.

يطول الحديث فى وصف متعة قراءة تاريخ هذه الحقبة، وتقدير فائدة هذه القراءة بعامة، وفى خدمة التفكير والتأمل بخاصة، وحين أنظر فى تجربتى خلال الشهور الثلاثة الماضية، ألاحظ أننى كنت كثيرًا ما انسى نفسى وأنا عاكف على الكتب فأتجاوز الوقت المحدد للقراءة بساعة أو ساعتين. وألاحظ أن مشاعرى كانت تثور وتفيض، وكم اغرورقت عيناى بالدموع تأثرًا بمعان عظيمة، وملكنى الغضب انفعالاً أمام أفعال خسيسة. وألاحظ أن عقلى كان يفكر بحيوية ونشاط مبلورًا الأفكار الفاعلة.

سؤال رئيسى كانت الإجابة عليه نصب عينى وأنا أقرأ وأتأمل، وهو السؤال الرئيسى الذى نضع الإجابة عليه نصب أعيننا فى إحيائنا لذكرى يومى حطين والقدس.

ما العامل الأساسى فى انتصارنا فى هذين اليومى وفى نجاحنا فى إفشال الغزو الفرنجى؟

لقد اجتهدت فى الإجابة عن هذا السؤال حين طُرح علىّ فى ندوة فكرية مؤخرًا، ويمكن أن أوجز الإجابة بأن الانتصار حدث حين أفاقت الأمة، وصحت، ووطّنت نفسها على صراع النفس الطويل، ورفعت راية الجهاد، وحولت حياتها على مختلف الصُّعد وفقًا لمتطلبات الحرب، وتوحدت شعبًا زرّاعًا وصنّاعًا وتجّارًا وأهل قلم وأهل سيف وقادةً على هدف طرد الغزاة، وتلاحم الناس مع

قيادتهم المجاهدة وكلهم ثقة بها. وكان واضحًا لدىّ أن هناك عوامل كثيرة تفاعلت فى صنع هذا العامل الأساسى، يتصل بعضها بنا وبعضها الآخر بالعدد، وتتأثر بالعالم المحيط آنذاك، وكم هو مفيد أن نقف أمام هذه العوامل بعد أن نستحضر ما حدث فى تلك الحقبة.

● ● ●

الخطوة الأولى فى إحياء ذكرى يومى حطين والقدس إذن هى استحضار أحداث حقبة حروب الفرنجة..

فأين نجد هذه الأحداث مكتوبة؟ وكيف نقرأها؟

إن المصادر كثيرة ومتنوعة، فيها ما هو قديم وفيها ما هو حديث، ومنها ما هو عربى إسلامى ومنها ما هو غربى. فيها ما يسلّط الأضواء على الحياة الاجتماعية، وعلى الحياة الأدبية، وعلى المعارك العسكرية، وعلى التحركات السياسية، وعلى الحكام، وعلى القادة، وعلى العلماء، ومنها ما يأخذ صورة التأريخ أو التحليل التاريخى أو جمع الوثائق التاريخية، وقد وجدت نفسى حين توجهت لقراءة تاريخ تلك الحقبة أمام كتب تعد بالعشرات، وكم استمتعت وأنا أنتقل بين المؤلفات القديمة والمؤلفات الحديثة وبين العربى الإسلامى منها والغربى.

تقدم هذه المصادر صورة حية لحقبة حروب الفرنجة، ولعل من أبرز ما رأيته فى هذه الصورة مما يساعدنا على فهم واقعنا اليوم، هو وجود تيارات صاعدة وأخرى هابطة فيها، وظهور خطين

متلازمين متناقضين يمثل أولهما سلسلة حلقات من الحديد الصدئ، ويمثل الآخر سلسلة حلقات من الحديد الصلب المسقى المطلى بالذهب، وقد حدث الانتصار حين قويت التيارات الصاعدة، وتغلبت السلسلة الأخرى.

● ● ●

لقد استوجب هذا الانتصار خوض معارك طاحنة خلال قرنين من السنين، وإذا كان يوما حطين والقدس قد حظيا بأعظم هذه المعارك، فإن هناك أيامًا قبلهما وأخرى بعدهما تستحق أن توصف معاركها بأنها كانت عظيمة، ومن واجبنا أن نستذكرها ونستحضر أحداثها، وهذا ما نبتغيه من إحياء ذكراها.

حين بزغ فجر يوم السبت الرابع من تموز/ يوليو من عام ١١٨٧ ميلاديًا، كان الفرنج قد آووا بجيوشهم إلى تل حطين غربى طبرية، وأمضوا ليلتهم فى بؤس يستمعون إلى تكبير المسلمين وتهليلهم، وقد أخذ منهم العطش مأخذه، ولفحتهم حرارة النار التى أشعلها المسلمون فى الأعشاب الجافة على التل، وغشيهم الدخان الساخن. وكان صلاح الدين قد حرّك رجاله، وأتم تطويق جيش الملك الفرنجى. وما أسرع ما بدأ هجومه مع إشراقة أول ضوء. واجتمع على الفرنجة «العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال». وقد أسهب الأصفهانى فى وصف المعركة ببيانه المتميز، وتناولها آخرون بالعرض والتحليل، ودخلت معركة حطين التاريخ كواحدة من أبرز المعارك الفاصلة، وخلد يوم حطين.

كانت الطريق إلى حطين والقدس طويلة، وكان السير فيها حافلاً بالمشقة بعد أن نجح الغزو الفرنجي في احتلال القدس عام ١٠٩٧م، وحرّر صلاح الدين القدس بعد تسعين عامًا، وطهرها من رجس الاحتلال، فلنتتبع هذا السير مرحلة مرحلة، ولنعش مع ذكرى يومي حطين والقدس لنشق طريقنا إلى حطين والقدس.

●●●

٢- عن العدوان الفرنجى

شـهـد يوم حطين «السبت الرابع من تموز/ يوليـو ١١٨٧م» انتصار صلاح الدين على الفرنج فى معركة فاصلة. وكان ذلك بعد مضى تسعة عقود على قيام الفرنج بالعدوان على وطننا، وقد حفلت هذه الفترة بالأحداث، وشهدت أيامًا مهدت ليوم حطين، وإن لنا أن نقف بداية أمام هذا العدوان الفرنجى لنتعرف على ماهيته وأسبابه وظروفه وفظاعته، وفى اعتبارنا أحداث عصرنا والعدوان الصهيونى علينا.

تمثل هذا العدوان الفرنجى بحروب شنّها الفرنجة الأوروبيون علينا، وقد أطلقوا هم على هذه الحروب اسم «الحروب الصليبية» نسبة إلى علامة الصليب التى اتخذوها شعارًا لهم. أما أجدادنا فقد عرفوها باسم «حروب الفرنج» نسبة إلى القوم الذين تولوا كبرها، وقد تحدثوا عن «الفرنج» أو «الفرنجة» أو «الإفرنج» فى تواريخهم.

ونحن نرجح استخدام هذا الاسم، ولذلك نتحدث عن العدوان الفرنجى، والفرنجة هم سكان البلاد التى نعرفها اليوم باسم فرنسا، ويلاحظ ديورانت صاحب «قصة الحضارة» أن الحرب الصليبية الأولى كانت فى الأغلب الأعم مغامرة فرنسية، ومن أجل ذلك ظل الشرق الأدنى إلى هذا اليوم يسمى غرب أوروبا بلاد الفرنجة (الإفرنج)، وهذه ملاحظة دقيقة فنحن لا نزال نستخدم

هذه التسمية التى ورثناها عن أجدادنا.

لقد حدث الإعلان الأول لهذه الحروب فى مدينة كليرمونت فى مقاطعة أوفرنى بجنوب فرنسا خريف عام ١٠٩٥، وكان الذى أعلن هو البابا «أربان» الثانى الفرنجى، واستخدم لغة الفرنجة حين ألقى «أقوى خطبة فى تاريخ العصور الوسطى الأوروبية».

تكشف لنا هذه الخطبة التى هى إعلان حرب عن أفكار قائلها، وتسلط أضواء على دوافعه، فهو يخاطب «شعب الفرنجة! شعب الله المحبوب المختار!» فيتحدث له عن الأخبار المحزنة التى جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية تعلن «أن جنسًا لعينًا أبعد ما يكون عن الله؛ قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد المسيحيين...» وهو يستثير فيهم فضلاً عن عاطفتهم الدينية، حميتهم بذكر أمجاد شارلمان وعظمته «وأمجاد غيره من ملوكهم وعظمتهم»، ويعمد بعد ذلك وبصراحة كاملة إلى إثارة أطماعهم وترغيبهم بخيرات وطننا وتحريضهم على انتزاع أراضينا منّا «لا تدعوا شيئًا يقعد بكم من أملاككم أو من شئون أسركم، ذلك بأن الأراضى التى تسكنوها الآن ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين تحيط بها من جميع جوانبها البحار والجبال، وتكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضًا، ويلتهم بعضكم بعضًا وتتحاربون، طهّروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، واقضوا على ما بينكم من نزاع، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس. وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملّكوها أنتم. وإن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها، هى فردوس المباهج»، وهو يختم خطبته بعد هذه

المصارحة بترغيبهم بالغفران «قوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجدًا لا يغنى فى ملكوت السموات».

حين ننظر فى ماهية هذه الحروب نجد أنها عدوان فرنجى له أطماع معلنة، وحين ننظر فى أسبابه نجد أن عدة أسباب تفاعلت معًا لتنضجه، وما أكثر ما كتب عن ما هو مباشر من هذه الأسباب وما هو غير مباشر..

وأول سبب مباشر هو بروز قوة الأتراك السلاجقة فى الشرق الذين زودوا الخلافة العباسية فى بغداد بدماء جديدة، وانتصر سلطانهم الثانى ألب أرسلان على الروم البيزنطيين انتصارًا ساحقًا فى معركة ملاذكرد الفاصلة يوم الجمعة ٢٦ من آب/ أغسطس ١٠٧١م الموافق سنة ٤٦٣هـ..

وكان السبب المباشر الثانى هو ما حاق بالإمبراطورية البيزنطية من ضعف بعد أن عُمِّرت سبعة قرون، وقد حاول الإمبراطور ألكسيوس كومنين أن ينقذ الإمبراطورية بعد هزيمتها فى ملاذكرد، وكتب إلى البابا أربان الثانى يستحث أوروبا اللاتينية لتساعدهُ على صد هجمات الترك السلاجقة، ونلاحظ أن خطبة البابا تضمنت الإشارة إلى هذين السببين المباشرين.

كانت أوروبا تشهد تحولات فى تلك الفترة ولّدت أسبابًا أخرى، فقد برزت المدن الأوروبية والإيطالية منها بخاصة على مسرح الأحداث، وتزايدت مصالحها التجارية، فتطلعت إلى السيطرة على طرق التجارة التى تمر بوطننا، وأراد كبار الإقطاعيين ملوكًا

ودوقات وكونتات وبارونات أن يوسعوا أملاكهم، ويضاعفوا ثرواتهم. كما حلم الفرسان من صغار الإقطاعيين بالحصول على أراض زراعية فى وطننا،وكان نظام الوراثة المتبع فى أوروبا يحرم أبناء الإقطاعيين من التركة التى تؤول إلى الابن البكر وحده، وتطلعت الكنيسة التى كانت تخوض معركة شرسة ضد الملوك الزمنيين إلى فرض سيطرتها ومدّ سيادتها على الكنيسة الشرقية المنشقة عنها، ونلاحظ أن إشارات لكل هذه الأسباب وردت فى خطبة البابا التى تذكرنا بكتابات الصهيونية غير اليهودية فى القرن الماضى ثم بكتابات الصهيونية اليهودية وأشهرها كتاب هرتزل «الدولة اليهودية»، وبتصريح بلفور.

كان البابا أربان الثانى هو الذى اختار علامة الصليب شعارًا لهذه الحروب، فقد علت أصوات الجمع الذى استمع إلى خطبته وهى تردد: «تلك إرادة الله» فردد هو بدوره النداء، وأمر الذاهبين إلى وطننا أن يضعوا علامة الصليب على جباههم أو صدورهم، وظل يتنقل تسعة أشهر داعيًا للحرب، ونجح فى اتخاذ مجموعة إجراءات مكنت من توحيد أوروبا على العدوان.

لقد استطاع هذا العدوان أن يغير من طبيعة العلاقات التى كانت قائمة بين وطننا والحجاج الأوروبيين الذين يقصدون القدس، فمنذ أن حرّر الفتح الإسلامى القدس، وأعطى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) العهد لأهلها وهذه العلاقات سلمية تمتع فى ظلها الحجاج الأوروبيون بالأمن، وحققوا أهدافهم الدينية والتجارية.

شخصيات كثيرة برزت على مسرح الأحداث فى تلك الفترة مع أربان الثانى، وفى مقدمة هؤلاء بطرس الناسك الذى قاد جحفلاً من الفلاحين المتطوعين القلقين الجهلاء فى آذار/ مارس ١٠٩٦، وسار بهم حتى القسطنطينية فكانوا كالجراد المنتشر يخرّبون كل مكان يحلّون فيه، وانتهى الأمر بإبادتهم حين زحفوا على نيقية، وتصدى لهم الأتراك بعد أن تركهم قائدهم اشمئزازاً مما اقترفوه، وأقام فى القسطنطينية حتى عام ١١١٥م، ومن هؤلاء وُلْتر المفلس الذى كان من بين القتلى، ولم يلبث أن برز الدوق جدفرى وأخوه بلدوين والكونت بوهيمند ومعه ابن أخيه تانكرد والدوق روبير دريموند، وسار هؤلاء من طرق مختلفة بجموعهم إلى القسطنطينية أواخر ١٠٩٦م.

لقد حفظت لنا كتب التاريخ تفاصيل ما حدث لهذه الحملة الفرنجية الأولى، ويقف المرء أمام الوضع الذى وجد فيه الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس نفسه حين وصلت الحملة إلى أبواب القسطنطينية، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار، فهو الذى كتب فى رسالة إلى روبرت أمير الأراضى الواطئة حوالى عام ١٠٨٨ «ومن الأفضل أن تكون القسطنطينية فى حوزتكم وليست فى حوزة الأتراك»، ولكنه بعد أن عانى الأمرّين من جحافل الفلاحين اعتمد الحذر الشديد من القادمين، وعمل ما بوسعه ليصرفهم عن القسطنطينية إلى قتال الأتراك السلاجقة المسلمين، وقد أغراهم بالأعطيات السخية ليقسموا له يمين الولاء، والتقى هؤلاء قرب قونية بجيش تركى يقوده قلج أرسلان، فانتصروا عليه صيف ١٠٩٧م.

وهكذا زحفت الحملة باتجاه أنطاكية مخترقة الأناضول، ولم يلبث أن افترق عنها تانكرد ويلدوين واتجها إلى الرها فى أعماق آسيا الصغرى حيث أسس بولدوين «بالقتل والغدر أولى الإمارات اللاتينية فى الشرق» عام ١٠٩٨م كما يقول ديورانت. وكان يحكمها حاكم أرمنى فتنازل له عن حكمها، واتجهت بقية الحملة جنوبًا إلى أنطاكية التى وصفها مؤرخ فرنجى «بأنها مدينة ذات بهجة وجمال عظيم تمتاز عن سائر المدن»، فحاصروها، وقاومت أنطاكية الحصار ثمانية أشهر، ثم سقطت، وما أسرع ما اندفع الفرنجة باتجاه القدس، واحتلوها صيف عام ١٠٩٩م.

كيف استطاع الفرنجة أن ينفذوا إلى بيت المقدس في قلب الدولة العربية الإسلامية؟

إن نظرة على أوضاع المشرق الإسلامى آنذاك تساعدنا على الإجابة عن هذا السؤال، فقد كانت فى بلادنا خلافتان الأولى وهى العباسية فى بغداد، والأخرى هى الفاطمية فى مصر، وكانت دولة السلاجقة التى سيطرت على الأولى وأمدتها بدم جديد قد تفتت إلى عدد من الإمارات بعد وفاة سلطانها ملكشاه، واحتدم الصراع بين الخلافتين من جهة، وبين أمراء ووزراء كل منهما من جهة أخرى، وأورث الصراع الجميع الضعف، ومكّن هذا الضعف للفرنجة من أن ينفذوا.

لقد تحدث المؤرخون المسلمون عن هذه الأوضاع، ومن هؤلاء ابن الأثير فى كتابه «الكامل فى التاريخ»، فذكر «أن أصحاب مصر

من العلويين (أى الفاطميين) لمّا رأوا قوة الدولة السلجوقية، وتمكنها من استيلائها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، ودخول أقسيس (أحد القادة السلاجقة) إلى مصر وحصارها خافوا، وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الشام ليملكوه، ويكونوا بينهم وبين المسلمين والله أعلم». ويلفت نظرنا فى حديث ابن الأثير عن الفرنج أنه يتحدث عن أطماعهم فى كل بلاد المسلمين وبخاصة أفريقيا، ويشير إلى استيلائهم على طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس، ثم قصدهم صقلية وتطرقهم إلى أطراف أفريقية، ويذكر أن روجر ملك صقلية زيّن للفرنجة أن يقصدوا بيت المقدس، ويتركوا أفريقية لأنه أبرم عهودًا بينه وبين أهلها، «فتجهزوا وخرجوا إلى الشام»، وباشروا عدوانهم علينا.

إننا حين نقرأ تاريخ هذا العدوان اليوم وفى اعتبارنا أحداث عصرنا والعدوان الصهيونى علينا الذى نعيشه لحظة لحظة ندرك بشكل أفضل ماهية حروب الأمس وحروب اليوم وأسبابها، ويبدو لنا ما بين العدوانين من مشابهة، وليس هذا بغريب فهناك مجموعة ثوابت حكمت كلاً منهما.

إن عظمة يوم حطين كامنة فى أنه قصم ظهر العدوان الفرنجى، فمسح مرارات ما سببته من معاناة لنا، وما أنزله من نكبة بنا، وحديث النكبة يستحق وقفة.

● ● ●

٣- عن نكبة سنة ١٠٩٩م- ٤٩٢هـ

توج انتصار صلاح الدين «يوم حطين» لخمس بقين من ربيع الآخر ٥٨٣هـ بتحريره القدس «يوم القدس» فى ٢٦ من رجب ٥٨٣هـ - ٢ من تشرين أول/ أكتوبر ١١٨٧م، ولقد كان تحرير القدس هو رمز الانتصار وذروته تمامًا كما كان سقوط القدس فى أيدى الفرنج هو رمز النكبة وذروتها سنة ١٠٩٩م - ٤٩٢هـ، ويا لها من نكبة فالقدس هى الرمز، أمس واليوم، وكم يتأثر قارئ تاريخ حروب الفرنجة وهو يقرأ رسائل صلاح الدين إلى عاصمة الخلافة وحواضر الدولة عن فتح القدس، الذى كان البلسم الوحيد لما أصاب أمتنا يوم نكبتها، ويتداعى إلى الخاطر ما حدث فى ذلك اليوم.

• • •

الحديث عن تلك النكبة التى حلت بوطننا العربى - الإسلامى حافل بالمرارات، وهو يذكرنا نحن الذين عشنا نكبة سنة ١٩٤٨م بثوابت تحكم أمس واليوم.

نختار ما أورده ابن الأثيرعن « مُلك الإفرنج - لعنهم الله - البيت المقدس» فى كتابه: «الكامل فى التاريخ».

«... فقصده الإفرنج بعد أن حصروا عكّا فلم يقدروا عليها،

فلما وصلوا إليه حصروه نيفًا وأربعين يومًا، ونصبوا عليه برجين، أحدهما من ناحية صِهْيون، وأحرقه المسلمون وقتلوا كل من به، فلما فرغوا من إحراقه أتاهم المستغيث بأن المدينة قد مُلكت من الجانب الآخر، وملكوها من جهة الشمال منه ضَحوة نهار يوم الجمعة ٢٢ من شعبان، وركب الناس السيف، ولبث الفرنج فى البلدة أسبوعًا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود (وهو برج فى قلعة القدس) فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذل لهم الفرنج الأمان، فسلموه إليهم، ووفى لهم الفرنج، وخرجوا ليلاً إلى عسقلان فأقاموا بها..

«وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان، وجاور بذلك الموقع الشريف. وأخذوا من عند الصخرة (التى بُنى عليها مسجد عمر) نيفًا وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ٣٦٠٠ درهم، وأخذوا تنورًا من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامى، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقرة ومن المذهب نيفًا وعشرين قنديلاً، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء..

«وورد المستنفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد بصحبة القاضى أبى سعد الهروى، فأوردوا فى الديوان كلامًا أبكى العيون، وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسبى الحريم والأولاد ونهب الأموال، فلشدة ما

أصابهم أفطروا، واختلف السلاطين على ما نذكره، فتمكن الفرنج من البلاد».

هكذا تحدث ابن الأثير عن النكبة فى ذروتها، ولنا أن نقف متأملين أمام إشاراته وبخاصة آخرها التى تحمل فى طياتها اقتران تمكن الفرنج من البلاد باختلاف سلاطين البلاد، ونلاحظ أن النكبة ككل نكبة تضمنت الخسائر فى الأرواح وفى الأموال، وأن ابن الأثير يخص بالذكر بين خسائر الأرواح وفى الأموال، وأن ابن الأثير يخص بالذكر بين خسائر الأرواح جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاورَ بذلك الموضع الشريف، ونتأمل فى صورة اللاجئين حين وصلوا إلى بغداد، ووصف ابن الأثير لما قالوه عن النكبة فى الديوان مما أبكى العيون وأوجع القلوب.

نختار أيضًا مما أورده المؤرخون الفرنجيون ما قاله القس ريمند الإجيلى أحد شهود العيان لما حدث:

«وشاهدنا أشياء عجيبة، إذ قُطِّعت رؤوس عدد كبير من المسلمين، وقُتل غيرهم رميًا بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذَّبون عدة أيام، ثم أُحرقوا فى النار، وكنت ترى فى الشوارع أكوام الرؤوس والأيدى والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل»، وقد روى غيره من المعاصرين تفاصيل أدق من هذه وأوفى كما أورد ديورانت «فالنساء كنّ يُقتلن طعنًا بالسيوف

والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد، وذبح السبعون ألفًا من المسلمين الذين بقوا فى المدينة، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم، وأُشعلت فيهم النار وهم أحياء، واحتشد المنتصرون فى كنيسة الضريح المقدس، وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت فى يوم ما «المسيح المصلوب» وأخذ كل منهم يعانق الآخر ابتهاجًا بالنصر، وبتحرير المدينة».

●●●

لم تكن جرائم الفرنجة التى اقترفوها فى القدس أول جرائمهم، فقد سبقتها جرائم أخرى تتالت حلقاتها، وبدأت أولى هذه الحلقات مع بدء الحملات، ونشير من بين هذه الجرائم إلى قيام الجموع التى تحركت عام ١٠٩٦ بقتل كثيرين من يهود ألمانيا وبوهيميا ثم بسلب ونهب سكان البلاد التى مروا بها، كما نقف أمام النكبة التى حلت بأنطاكية حين سقطت بأيدى الفرنجة يوم ٣ من حزيران/ يونيو ١٠٩٨، بعد أن قاومت الحصار ثمانية أشهر، وقد دخل الفرنج البلد بفعل خيانة زرّاد (صانع دروع) «فنهبوه وقتلوا من فيه من المسلمين». ونتأمل فى نهاية صاحب أنطاكية ياغى سيان الذى «ظهر من شجاعته وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره» ولكنه حين علم بنفاذ الفرنج إلى المدينة «دخله الرعب وخرج هاربًا فى ثلاثين غلامًا هائمًا على وجهه» وتبعه نائبه، «ولما طلع النهار عليه رجع إليه عقله وكان كالولهان، فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ فقال لمن معه: أين أنا؟ فقيل:

على أربعة فراسخ من أنطاكية فندم كيف خلص سالمًا ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يُقتل، وجعل يتلهف ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين، فلشدة ما لحقه سقط عن فرسه مغشيًا عليه، فلما سقط على الأرض أراد أصحابه أن يركبوه، فلم يكن فيه مسكة فإنه كان قد قارب الموت، فتركوه وساروا عنه، واجتاز به إنسان أرمنى كان يقطع الحطب، وهو بآخر رمق؛ فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى الفرنج بأنطاكية»، ونقرأ أيضًا ما فعله الفرنج بمعرة النعمان حين سقطت فى أيديهم فقد وضعوا السيف فى المسلمين من أهلها ثلاثة أيام، فقتلوا الكثيرين وسبوا السبى الكثير.

لقد استطاع الفرنجة أن يقترفوا هذه الجرائم بسبب اختلاف الكلمة، وتفرق الأهواء، والصراع بين حكامنا وأمرائنا، ونضرب مثلاً على هذا الحال ما جرى بعد نكبة أنطاكية حين تحرك حاكم الموصل «قوام الدولة كربوقا» وأقام بمرج دابق، واجتمع معه حاكم دمشق ابن تتش وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص وآخرون «وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين، فأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظنًا منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك، وأضمروا له فى أنفسهم الغدر إذا كان قتال وعزموا على إسلامه عند المصدوقة (أى عند احتدام القتال)...»، كما يقول ابن الأثير، «فلما تكامل خروج الفرنج، ولم يبق بأنطاكية أحد منهم ضربوا مصافًا عظيمًا (أى هجومًا) فولّى المسلمون منهزمين، لما عاملهم به كربوقا أولاً من الاستهانة والإعراض

عنهم، وثانيًا من منعهم من قتل الإفرنج، وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم... وانهزم كربوقا معهم، فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، إذ لم يجرِ قتال ينهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم، وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلبًا للشهادة، فقتل الفرنج منهم أُلوفًا..».

لم تكن جرائم الفرنج فى الذين سالموهم منًّا بأقل من جرائمهم فى الذين قاوموهم، فهم لم يعرفوا أحكامًا للحرب، ولم يترددوا فى الخروج على الأحكام التى عرّفهم بها المسلمون، ويروى ابن الأثير كيف أخذ أهل «جُبيل» الأمان من الفرنج حين عجزوا عن قتالهم «وسلموا البلد إليهم، فلم تفِ الفرنج لهم بالأمان، وأخذوا أموالهم، واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب»، كما يروى كيف عجز والى عكّا زُهر الدولة الجيوش عن حفظ البلد فخرج منه «وملك الفرنج البلد بالسيف قهرًا، وفعلوا بأهله الأفعال الشنيعة».

● ● ●

كانت القدس حين حلت بها تلك النكبة بأيدى الفاطميين الذى حكموها قبل ذلك بعام، وقد ساروا إليها حين رأوا ضعف الأتراك الذين كانوا يحكمونها، وحاصروها نيفًا وأربعين يومًا وملكوها بالأمان فى شعبان ٤٨٩هـ - ١٠٩٦م فكان من سخريات التاريخ - كما يقال - أن الأتراك السلاجقة الذين جاء الفرنج ليقاتلوهم فى القدس أخرجهم الفاطميون منها قبل وصول الفرنجة بعام.

لقد فعل الخلاف القائم بين الخلافتين الفاطمية فى مصر والعباسية فى بغداد فعله فى إضعاف جبهتنا ومن ثم نزول النكبة بنا، ويروى ابن القلانسى كيف خاف طغتكين - حاكم دمشق - أن يثير إنجاده صور ضد الفرنجة الذين يحاصرونها غضب الملك الأفضل فى مصر لأن صور من أملاكه.

فعل أيضًا تفجر الخلاف داخل كل من الدولتين فعله، ومن أبشع صوره ذلك الذى نشب بين الوزيرين الفاطميين شاور وضرغام، وبين حاكم الشام أنر وحاكم الموصل سيف الدين بن عز الدين زنكى، وأدى ذلك فى كثير من الأحيان إلى أن يستعين أطراف هذه الخلافات على بعضهم بعضًا بالفرنجة الأعداء.

وفعل خروج فئات من المجتمع على حكامهم واعتمادهم «الاغتيال» وسيلة للتخلص من معارضيهم فعله، وأورثت بعض أعمال هؤلاء الناس إحباطًا.

لقد تحدث ابن الأثير كيف حشد مودود، حاكم الموصل، جيشًا قويًا لحرب الفرنج بعد نكبة القدس، فإذا به يُغتال يوم العيد فى جامع بنى أمية بدمشق، فيتفرق الجيش كله، ويقول لسان حال ملك الفرنج: «إن أمة قتلت عميدها، فى يوم عيدها، فى بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها».

ونجد ابن خلدون فى كتابه «العبر...» بعد أن يروى أخبار الصراع بين شاور وضرغام ومقتل كثيرين من أمراء المصريين يقول: «حتى ضعفت الدولة، وخلت من الأعيان، وأدى ذلك إلى خرابها».

ونجد أبا شامة فى كتاب الروضتين يحكى كيف تجرأ الفرنجة على شاور بعد أن استعان بهم فلم يعودوا يكتفوا بالجزية التى يدفعها لهم، وقد أحس ملك الفرنجة بما أصاب مصر من ضعف فأراد إما احتلالها أو مضاعفة الجزية، وزحف نحوها، ولم يلبث «مرى» أن احتل بلبيس وقتل سكانها وسبى نساءها، وأسر ولدين من أولاد شاور وأرسل إليه يقول كما أورد المقريزى فى اتعاظ الحنفا «إن ابنك قال: أيحسب مرى أن بلبيس جبنة يأكلها؟ نعم بلبيس جبنة والقاهرة زبدة».

ما أشد مرارة حديث النكبة، إنه كالعلقم. وهو يذكرنا نحن الذى عشنا مرارات نكبة عام ١٩٤٨ بثوابت تحكم أمس واليوم، ومن هذه الثوابت أسباب النكبات، وقد تعرفنا عليها وسقنا أمثلة لها، ومن هذه الثوابت أسباب الانتصار الذى يمسح مرارة النكبة، وللنصر طريق لابد من ولوجه، وقد أدركت أمتنا ذلك بعد تلك النكبة.

• • •

٤ - عن بداية الصحوة ونضجها

كان انتصارنا فى يومى حطين والقدس عام ١١٨٧م هو ذروة مرحلة الصحوة التى عاشتها أمتنا بعد أن حلت بها نكبة عام ١٠٩٩م على يد الفرنجة.

ظهرت بدايات مرحلة الصحوة هذه فى أعقاب النكبة واستجابة لتحدياتها، حين أفاق البعض من ذهول الصدمة، وباشروا العمل، وتمثلت هذه الصحوة فى جهاد المعتدين، والسعى لتوحيد طاقات الأمة، وكان عمادها علماء عاملون وقواد مجاهدون وحكام عادلون، وهكذا سيطرت فى هذه المرحلة فكرة الجهاد، وبان التوجه نحو الوحدة.

إن لكل مرحلة تاريخية رموزها من الشخوص الذين يرمزون لما فيها من إيجابيات وسلبيات، وقد خلّد تاريخ هذه المرحلة من رموز الصحوة شرف الدولة مودود، ونجم الدولة أبا الغازى، وأخاه نور الدولة بلك، وآق سُنقر البرسقى، وعماد الدين زنكى، وابنه نور الدين محمود، ويمثل هؤلاء جميعًا حلقات فى تلك السلسلة من الحديد الصلب المذهب التى يحتل صلاح الدين واسطتها، ويمثل أسطع حلقاتها.

●●●

لقد حفظ تاريخ هذه المرحلة لشرف الدولة مودود أنه تبنى فكرة الجهاد، وتنبه إلى أهمية الوحدة وسعى سعيه لتحقيقها، وأدرك واقع إمارة الرها الفرنجية، وخطورتها على المسلمين، وضرورة القضاء عليها.

تولى هذا الأمير الشهم إمارة الموصل سنة ٥٠٣هـ - ١١١٠م، وهو أخو السلطان محمد السلجوقى، وكان قد شهد فى بغداد آثار النكبة التى حلت ببلاد الشام، وقد تابع أحوال إمارة الرها التى سلمها حاكمها الأرمنى إلى الفرنجة فأصبحت شوكة فى جنب الجسم الإسلامى نافذة إلى العمق، ولاحظ أن الفرنجة أساءوا للأرمن بالغ الإساءة، فأخذ الأرمن يتصلون بالمسلمين يسألونهم العودة، ورفع مودود راية الجهاد، ونجح فى جمع عدد من أمراء السلاجقة بالانضواء تحتها، فاجتمع لأول مرة مع مودود «مسعود ابن أخيه السلطان وسقمان القطبى صاحب ديار بكر وابنا برسق ابكتلى وزنكى أصحاب همذان والأمير أحمد بك صاحب مراغة وأبو الهيجاء صاحب أربل وإيازين أبى الغازى بعثه أخوه صاحب ماردين، وساروا جميعًا إلى سنجار، وفتحوا عدة حصون للإفرنج...»، كما يقول ابن خلدون فى تاريخه، وتغلغل هذا الجيش فى وطننا محاريًا الفرنجة المعتدين، بعد أن حاصر الرها فترة، ونازلهم ظاهر حلب ومعرة النعمان. وعبر مودود الفرات عدة مرات، واتجه جيشه سنة ٥٠٦هـ - ١١١٢م فى اتجاه عكّا والقدس مهاجمًا ما يصادفه من حصون الفرنجة، ودخل دمشق مع بعض

جنده فى رمضان من تلك السنة، وصلى الجمعة فى جامعها مع أميرها طغتكين، فلما فرغ من صلاته وخرج ويده فى يد طغتكين، واجتُهِد به ليُفطر فلم يفعل وقال: لا لقيت الله إلا صائمًا، ومات من يومه رحمه الله»، كما يقول ابن الأثير، وشمت الفرنج لمقتله، ولسان حال ملكهم يردد «أن أُمّةً قتلت عميدها، فى يوم عيدها، فى بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها». ولكن مودودًا قضى شهيدًا فبقى حيًا عند ربه، وتتالى من يرفع راية الجهاد بعده، ويعمل للتوحيد.

● ● ●

رفع أبو الغازى بن أرتق راية الجهاد وهو صاحب ماردين الصغيرة المساحة القليلة الموارد، واستطاع أن يستولى على حلب عام ٥١٢هـ - ١١١٩م بعد وفاة حاكمها رضوان سيئ الذكر، إذ «خشى أهل حلب على بلدهم من الإفرنج فاستدعوا أبا الغازى وسلّموا له البلد»، كما يقول ابن خلدون، وتوجه أبو الغازى كما يروى ابن النديم سنة ٥١٣هـ - ١١١٩م لشن هجوم مفاجئ على روجر الفرنجى صاحب أنطاكية، وهزمه فى معركة طاحنة وقتله، ويلفت نظرنا فى وصف ابن النديم للمعركة حديثه عن القاضى أبى الفضل بن الخشاب «الذى أقبل يحرّض الناس على القتال وهو راكب على حَجُر (أى بغل) وبيده رُمح فرآه بعض العسكر فازدراه، فأقبل على الناس، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم واسترهف هممهم بين الصفين فأبكى الناس وعظم فى أعينهم».

«وقتل فى المعركة ما يقارب خمسة عشر ألفًا من الفرنج، وكانت الوقعة يوم السبت (٢٨ من حزيران/ يونيو وقت الظهر». وتردد صدى هذا النصر، وبعث الخليفة المسترشد إلى أبى الغازى بخلعة التشريف ولقبه نجم الدين. وحارب نجم الدين الفرنجة مرة أخرى بعد شهر، ثم عاد إلى محاربتهم سنة ٥١٦هـ حزيران/ يونيو ١١٢٢م ومعه ابن أخيه نور الدولة بَلَك، وثقل عليه المرض فتابع نور الدولة، وانتصر على الفرنجى جوسلين، وأدركت المنية أبا الغازى فى ١٧ من رمضان ٥١٦هـ، ٣ من تشرين ثان/ نوفمبر ١١٢٢م بعد أن تمت على يديه عملية توحيد حلب والموصل وماردين، وبعد أن حقق للمسلمين النصر فى وقعة البلاطة تلك التى قال عنها ابن القلانسى: «وكان هذا الفتح من أحسن الفتوح والنصر الممنوح، لم يتفق مثله للإسلام فى سالف الأعوام ولا الأنف من الأيام».

●●●

تابع نور الدولة بَلَك رفع راية الجهاد بعد وفاة أخيه أبى الغازى، فخاض عدة معارك ضد الفرنجة وهزم قائدهم جوسلين، ثم أصابه سهم قاتل سنة ٥١٨هـ - ١١٢٤م، ففقد المسلمون بموته فارسًا مغوارًا، حقق الله على يديه النصر مرات.

●●●

وتابع آق سنقر البرسقى رفع راية الجهاد حين ولاه السلطان مسعود الموصلي حلب فى تلك السنة، فسار فى الناس سيرة العدل

والحزم فأحبه الناس، واجتهد فى إعداد الجند والتمهيد لجهاد المعتدين، ونازله الفرنجة سنة ٥١٩هـ - ١١٢٥م واستعاد كفر طاب، ولم يطل به العمر بعد ذلك أكثر من عام، إذ وثب به جماعة من الباطنية فقتلوه وهو يصلى الجمعة فى الموصل.

●●●

نضجت مرحلة الصحوة، واتصل جهاد المعتدين والعمل من أجل التوحيد، وعبّر عن هذا النضج أصدق تعبير عماد الدين زنكى القائد العظيم والحاكم العادل، الذى تولى إمارة الموصل سنة ٥٢٢هـ - ١١٢٨م وقد بلغ أشده وتجاوز الأربعين من عمره، وكان قد انخرط فى سلك المجاهدين منذ تفتحه، وتدرج فى المناصب، حتى أصبح قائدًا يُعتدُّ به، هو خير خلف لأبيه آق سنقر أحد مساعدى السلطان ملكشاه الذى قُتل وابنه فى العاشرة.

لقد سجل تاريخ هذه المرحلة لعماد الدين زنكى انتصاره على الفرنجة فى العديد من المعارك واستعادته الرها سنة ٥٣٩هـ - ١١٤٤م وقضاءه على أكبر إمارات الفرنجة وتوحيده أجزاء واسعة من بلاد الشام والعراق، قبل أن يقضى بطعنة نجلاء سنة ٥٤١هـ - ١١٤٧م بتدبير من خصومه وهو فى الرابعة والستين من عمره، وهناك الكثير مما يستحق أن يحكى عن سنوات حكمه.

ويصفه ابن الأثير بأنه كان «حسن الصورة، أسمر اللون، مليح العينين قد وخطه الشيب... وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يقدر القوى على ظلم الضعيف، وكانت

البلاد قبل أن يملكها خرابًا من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج، فعمّرها وامتلأت أهلاً وسكانًا... وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة، فصارت فى أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك. وكان شديد الغيرة ولاسيما على نساء الأجناد، وكان يقول: إن لم نحفظ نساء الأجناد بالهيبة، وإلا فسدن لكثرة غيبة أزواجهن فى الأسفار، وكان أشجع خلق الله.

أما قبل أن يملك فيكفيه أنه حضر مع الأمير مودود صاحب الموصل مدينة طبرية، وهى للفرنج، فوصلت طعنته باب البلد وأثر فيه... وأما بعد الملك، فقد كان الأعداء محدقين ببلاده، وكلهم يقصدها، ويريد أخذها، وهو لا يقنع بحفظها، حتى إنه لا ينقضى عليه عام إلا ويفتح من بلادهم... إلى أن ملك من كل من يليه طرفًا من بلاده».

ونتابع فى تاريخ ابن خلْدون عناوين فترة ولاية عماد الدين زنكى، فنقرأ: «استيلاؤه على حلب ثم على مدينة حماة، وفتحه حصن الأثارب وهزيمة الإفرنج، وحصاره قلعة آمد واستيلاؤه على قلعة النسور... وقلاع الهكارية وقلعة كواشى وحصاره مدينة دمشق... ومدينة حمص واستيلاؤه على بعدوين وهزيمة الإفرنج واستيلاؤه على حمص... وعلى بعلبك... واستيلاؤه على أكثر ديار بكر وفتحه الرها وغيرها من أعمال الإفرنج.

ونقرأ ما كتبه مؤرخو العصر عن فتح الرها فتزداد إعجابًا بعماد الدين القائد العسكرى الذى قصد الرها وجمع الأمراء

عنده على مائدة الطعام، وقال لا يأكل معى على مائدتى هذه إلا مَنْ يطعن غدًا معى على باب الرها... فتقدم له صبى لا يعرفه... وكان هو أول من حمل على الفرنج ومعه ذلك الصبى.

ونزداد إعجابًا بعماد الدين السياسى الحاذق الواسع الأفق الذى رأى بعد انتصاره «أن تخريب البلد لا يجوز فى السياسة» فأمر العساكر برد من أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، وقد استحق أن يفوز عند مؤرخى عصره باسم «أتابك الشهيد»، وكم نتأثر ونحن نقرأ ما يختم به ابن الأثير حديثه عنه «وحكى لى جماعة من أهل الدين والصلاح أن إنسانًا صالحًا رأى الشهيد فى منامه فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لى بفتح الرها».

ونتأمل فى ملامح صورة رمز نضج الصحوة، فنقف أمام مجتمع وطّن نفسه على رد العدوان ومقارعة المعتدين، ونجد أن هذا المجتمع عاش تفاعلات حادة عبّرت عن الصراع بين قوى التحرير وقوى الاستكانة، ونجح فى الالتحام بالقيادات المجاهدة، ويلفت نظرنا دور القيادة الناضجة فى تحقيق النصر، التى مارست وخبرت الحياة وبلورت أفكارها وأحسنت تحديد أساليبها، فعماد الدين مثلاً كان عارفًا بشؤون الجند، خبيرًا بسياستهم، فاجتمعت حوله أُلوف من العسكر بعضهم نظامى من العرب والأتراك والأكراد، وبعضهم غير نظامى من التركمان والبدو..

وقد رأينا كيف كان يغار على نسائهم فاطمأنت نفوسهم،

وكيف ألّف بينهم فأحبوه، ونلاحظ أنه أدرك دور العقيدة ودور اللسان فى إحكام انتمائهم إلى وطنهم العربى الإسلامى، وأنه أحسن معاملة الأرمن الذين عادوه بعد أن حقق النصر فألّف قلوبهم.

ونقف طويلاً أمام إقبال المجتمع على الإنتاج حين تميز الحاكم بالعدل؛ فإذا بالعمران يعم، وقد أعطى عماد الدين مثلاً على العدل، ومما يذكر أنه غضب على رجل من كبراء أمرائه؛ لأنه غصب دارًا ليهودى. وهكذا بدأ المجتمع الانطلاق، وتحقق انبعاثه، ومما يذكر أيضًا أنه حين فتح المعرة «حضر من بقى من أهلها ومعهم أعقاب من هلك وطلبوا أملاكهم، فطلب منهم كتبها فقالوا: إن الإفرنج أخذوا كل ما لنا والكتب التى للأملاك فيها فقال: اطلبوا دفاتر حلب وكل من عليه خراج على ملك يسلم إليه، ففعلوا ذلك، وأعاد على الناس أملاكهم، وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها»، كما يروى ابن الأثير.

يلفت نظرنا أيضًا مجموعة الرجال الأكْفاء الصالحين الذين عملوا مع عماد الدين، فانتفع بهم وبأولادهم، ونذكر منهم الحاجب الباغسيانى والقاضى الشهرزورى وحافظ قلعة الموصل جقر. ويلفت نظرنا العلماء المجاهدون الذين حملوا فى المجتمع أمانة الدعوة إلى الجهاد، وأسهموا فى إحياء علوم الدين.

لقد تجسد نضج الصحوة أكثر ما تجسد فى عملية التوحيد التى تحققت ومكّنت من مواجهة العدوان الفرنجى، وأثمرت

إسقاط إمارة الرها أكبر إمارات الفرنجة، وكان لابد لهذه العملية أن تستكمل وللجهاد أن يستمر حتى نصل إلى يومى حطين والقدس. وهذا ما فعله نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى وصلاح الدين وهما يقودان مجتمعًا وطّن نفسه على تحرير وطنه، ونظّم حياته على هذا الأساس.

• • •

٥ - عن الحملة الفرنجية الثانية وشروق شمس نور الدين



الصحوة ولادة جديدة، وهى تحدث كما رأينا بفعل مجموعة عوامل، وحين يتهيأ جسد الأمة لها، ولابد للصحوة أن تأخذ مداها بعد أن تحدث الإفاقة، وهى قادرة على أن تُمكِّن الأمة من مواجهة أعتى الأعاصير، وإنزال الهزيمة بأشرس الأعداء، وقد حدث هذا بين عامى ٥٣٩هـ - ١١٤٤م و٥٨٤هـ - ١١٨٧م، وسطعت فى سماء هذه الفترة شمسان ترمزان لها هما نور الدين وصلاح الدين، ولنا أن نتعرف على الشمس الأولى التى غابت سنة ٥٦٩هـ - ١١٧٤م بعد أن خلّفت ذكرى عطرة تثير فى النفس أروع المشاعر وأعظم المعانى.

● ● ●

تَمثل الإعصار العاتى الذى واجهنا بعد الإفاقة واستعادة عماد الدين زنكى للرها سنة ٥٣٩هـ - ١١٤٤م فى حملة إفرنجية ثانية يسميها الغربيون الحرب الصليبية الثانية (١١٤٦ - ١١٤٨) تولى كبر التعبئة لها برنار قس كنيسة كليرفو الذى رفعته الكنيسة إلى مقام قديسيها، وكان برنار قد سبق أن كتب بنفسه نظام جماعة فرسان المعبد (الداوية) الذين قاموا بدور خاص فى الغزو الفرنجى لوطننا، وقد تعاون مع البابا يوجين الثالث الذى كان يعانى آنذاك من

الخارجين عليه فى روما. وبدأ برنار بإقناع الملك الفرنسى لويس السابع، وأقنعه أن يحمل الصليب، وأثار عاطفة الناس وهو يخطب فيهم ويوزع عليهم شارات الصلبان فالتحقوا بالحملة «وخلت المدائن والحصون من سكانها، ولم يبق إلا رجل لكل سبع نساء»، كما كتب للبابا ثم انتقل برنار إلى ألمانيا وأقنع إمبراطورها كُنراد الثانى بأن إشغال الناس بالحرب الصليبية هو سبيله لإنهاء النزاع القائم فى دولته بين حزبين من النبلاء، وانضم إلى الحملة كثير من الأُمراء الإقطاعيين من أعتى رجال الحرب فى زمانهم.

حفل تاريخ هذه الحملة بالفظائع التى اقترفها الغزاة. وقد بدأوا مسيرتهم من ألمانيا بقتل عدد عظيم من اليهود هناك وإحراق دورهم ونهبها، وحين مروا ببلاد اليونان قتلوا الكثير من المسيحيين، وكان «مما أحزن فردريك ذا اللحية الصهباء - كما يقول ديورانت - أنه اضطر إلى أن يسفك بسيفه دماء المسيحيين ليستطيع ملاقاة «الكفار» - يعنى المسلمين - وقد أصر كونراد على أن يسير فى الطريق التى سارت فيه الحملة الأولى، ولم يلبث أن تخبط فى سيره ووقع فى كمين بعد كمين نصبه لهم المسلمون، ودبَّ فى قلوب جيشه اليأس لكثرة من هلك منهم. وجاء الجيش الفرنسى بقيادة لويس السابع فتقدم فى غير حذر فخسر الكثير من رجاله، ولكن لويس وصل إلى بيت المقدس ومثله كونراد، وقام الملكان الفرنسى والألمانى بحشد قوات الفرنجة وزحفا بها إلى دمشق.

إن من أعظم أحداث هذه الفترة صمود دمشق أمام حصار الفرنجة لها سنة ٥٤٣هـ - ١١٤٨م وإنزال الهزيمة بهم. وقد

أسهب مؤرخونا فى الحديث عن هذا الحدث العظيم، ولنا أن نأخذ فكرة عمّا كتبوه..

فهذا ابن القلانسى يقول فى كتابه «ذيل تاريخ دمشق»:

«واختلفت الآراء بينهم - يقصد الفرنجة - فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية، إلى أن استقرت الحال بينهم على منازلة مدينة دمشق، وحدثتهم نفوسهم الخبيثة بملكها، وتبايعوا ضيعها وجهاتها، وتواصلت الأخبار بذلك، وشرع متولى أمرها الأمير معن الدين أنر فى التأهب والاستعداد لحربهم ورفع شرهم... ووقف المسلمون بإزائهم يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ (٢٤ من تموز/ يوليو ١١٤٨م)، ونشبت الحرب بين الفريقين... واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد والعُدد، وغلبوا على الماء وانتشروا فى البساتين وخيموا فيها، وقربوا من البلد... واستشهد فى هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوى المالكى (رحمه الله)، قرب الربوة على الماء، لوقوفه فى وجوههم، وترك الرجوع عنهم، اتباعًا لأوامر الله تعالى فى كتابه الكريم، وكذلك عبد الرحمن الحلحولى الزاهد (رحمه الله) جرى أمره هذا المجرى... واستظهر المسلمون عليهم... وأبلى الأمير معين الدين فى حربهم بلاءً حسنًا... وكانت المكاتبات قد نفدت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وحصلت خيل التركمان تتواصل، ورجالة الأطراف تتابع..

ووصل فى هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدة... وأحاطوا بهم فى مخيمهم وحول

مجثمهم... وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالخفوف إلى جهادهم والمسارعة إلى استئصالهم، فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار، وأعلموا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصًا من الشبكة التى حصلوا فيها... غير الرحيل سَحَرًا يوم الأربعاء التالى مجفلين، والهرب مخذولين مغلوبين».

لقد تجسدت وحدة كلمة المسلمين فى يوم دمشق هذا، ويلفت النظر فيما أورده ابن القلانسى أمور كثيرة من بينها استشهاد الفقيه المجاهد وهو مغربى، واستشهاد الصوفى الزاهد وهو شامى فلسطينى، ونقرأ فى ابن الأثير وصفه لاستشهاد الفقيه المجاهد «وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن دناس الفندلاوى المغربى، وكان شيخًا كبيرًا فقيهًا عالمًا، فلما رآه معين الدين وهو راجل قصده وسلّم عليه، وقال له: يا شيخ أنت معذور لكبر سنك، ونحن نقوم بالذبّ عن المسلمين، وسأله أن يعود فلم يفعل، وقال قد بعت واشترى منى، فوالله لا أقتله ولا استقلته، فعنى قول الله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾، وتقدم فقاتل الفرنج حتى قُتل... وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخ دمشق أن بعض العلماء حكى له أنّه رأى الفندلاوى فى المنام فقال له: ما فعل الله بك وأين أنت؟ فقال: غفر لى، وأنا فى جنات عدن على سُرر متقابلين».

تحدث أيضًا سبط ابن الجوزى عن حصار دمشق فى كتابه «مرآة الزمان» ، وركّز على إبراز أثر العقيدة فى الحرب الدائرة لدى الطرفين، وأشار إلى ما فعلته فى النفوس، فقال:

«... وكان زمان الفواكه، فنزل الفرنج الوادى فأكلوا منها شيئًا كثيرًا، فأحلت أجوافهم ومات منهم خلق كثير، ومرض الباقون، ولما ضاق بأهل دمشق الحال أخرجوا الصدقات بالأموال على قدر أحوالهم، واجتمع الناس فى الجامع، الرجال والنساء والصبيان، ونشروا مصحف عثمان وبكوا وتضرعوا، فاستجاب الله لهم، فكان من الإفرنج قسيس طويل اللحية يقتدون به، فأصبح فى اليوم العاشر من نزولهم على دمشق، فركب حماره، وعلق فى عنقه صليبًا، وجعل فى يديه صليبين، وعلّق فى عنق حماره صليبًا، وجمع بين يديه الأناجيل والصلبان والخيالة والرجالة..

ولم يتخلف من الفرنجية أحد إلا من يحفظ الخيام، وقال لهم القسيس: «قد وعدنى المسيح أننى أفتح اليوم». وفتح المسلمون الأبواب، واستسلموا للموت، وغاروا للإسلام، وحملوا عليه حملة رجل واحد. وكان يومًا لم ير فى الجاهلية والإسلام مثله، وقصد واحد من أحداث دمشق القسيس وهو فى أول القوم، فضربه فأبان رأسه وقتل حماره».

كانت هزيمة الفرنج فى حصارهم لدمشق أكبر علامات فشل حملتهم الثانية، وقد شجر النزاع بينهم أثناء الحصار، ولم يلبث أن هزم كونراد ومرض ورجع مسربلاً بالعار إلى ألمانيا، وعاد معظم الفرسان الفرنسيين إلى فرنسا، وارتاعت أوروبا لما حدث من إخفاق شنيع، وشرع النقاد يهاجمون «القديس برنار» ويصفونه بأنه خيالى متهور، يرسل الناس ليلاقوا حتفهم، وأخذت الشكوك الفلسفية التى أشاعها «ابلار» تجد من يعبّر عنها حتى بين عامة

الشعب، وسرعان ما خبت جذوة التحمس - كما يقول ديورانت - للحرب الصليبية.

● ● ●

برز إبّان حصار دمشق اسم نور الدين محمود الذى لبّى مع أخيه الأكبر سيف الدين غازى دعوة حاكمها معين الدين أنر لنجدة المسلمين فيها، ويورد ابن الأثير أن معين الدين أرسل إلى الفرنج الغرباء يدعوهم إلى الرحيل حين وصلته النجدة، وقال لهم: «إن ملك المشرق قد حَضَر، فإن رحلتم وإلا سلمت البلد إليه، وحينئذ تندمون وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم بأى عقل تساعدون هؤلاء علينا - يقصد الفرنج الغرباء - وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية؟ وأما أنا فإن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين. وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام فى الشام، فأجابوه إلى التخلى عن ملك الألمان...».

كان نور الدين محمود الابن الثانى لعماد الدين زنكى، وقد حكم حلب بعد وفاة والده سنة ٥٤١هـ، بينما حكم أخوه سيف الدين غازى الموصل، وكان آنذاك فى الثلاثين من عمره، وقد تفقه فى الدين، ونشأ مجاهدًا فى سبيل الله، يجيش قلبه بالإيمان، ويحلم لجمع كلمة المسلمين والانتصار على الغزاة الإفرنج.

عمل نور الدين ما بوسعه لتحقيق هذا الحلم على مدى ثمانية وعشرين عامًا حتى توفى عام ٥٦٩هـ وهو على مشارف الستين،

وقد حقق الله الكثير على يديه، وحين نسترجع المعارك التى خاضها، ونتعرف على مسيرة حكمه نحيط بعظمته.

ويكفى أن نراجع تاريخ ابن خلدون لنرى كيف واجه سنة ٥٤١هـ محاولة الفرنج استرجاع الرها، حيث سارع إلى المدينة واستخلصها منهم، وقد شارك مع أخيه سنة ٥٤٣هـ فى انتصار دمشق على الفرنجة الذين حاصروها، ولم يلبث أن نازلهم قرب حلب «وهزمهم وأثخن فيهم قتلاً وأسرًا، وبعث من غنائمهم وأسراهم إلى أخيه سيف الدولة غازى والى المقتفى الخليفة». وحين توفى أخوه سيف الدولة سنة ٥٤٤هـ وتولى أخوه قطب الدين مودود الموصل حرص على التفاهم معه «فانفرد هو بملك الشام وانفرد أخوه قطب الدين بالجزيرة». وغزا فى تلك السنة أنطاكية «فعاث فيها وخرب كثيرًا من حصونها، وبينما هو يحاصر بعض الحصون اجتمع الإفرنج وزحفوا إليه فلقيهم وحاربهم، وأبلى فى ذلك الموقف فهزم الإفرنج وقتل البرلس صاحب أنطاكية وكان من عتاة الإفرنج»، وسار نور الدين سنة ٥٤٥هـ «إلى حصن فاميا بين شيزر وحماة وهو من أحسن القلاع فحاصره وملكه... ثم جمع نور الدين بعد ذلك وسار غازيًا إلى بلاد زعيم الإفرنج وهى تل باشر وعنتاب وعذار وغيرها من حصون شمالى حلب... وانهزم الإفرنج وأثخن المسلمون فيهم بالقتل والأسر».

كان على نور الدين محمود وهو يخوض هذه المعارك أن يتصدى لما يصيب بلاد المسلمين من وهن، وقد حدث أن أوغل الفرنجة سنة ٥٤٥هـ - ١١٥١م فى أرض حوران، فأسرع نور الدين

ليدفعهم عنها، وكتب إلى مجد الدين أبق الذى تولى دمشق بعد معين الدولة أنر عارضًا التعاون معه، ومطمئنًا إياه وهو قرب دمشق «إننى ما أردت بنزولى هذا المنزل طلبًا لمحاربتكم ولا منازلتكم، وإنما دعانى إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران العربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الإفرنج، وعدم الناصر لهم»..

وكان الإفرنج سنة ٥٤٨هـ قد ملكوا عسقلان من يد العلوية خلفاء مصر - على حد قول ابن خلدون «واعترضت دمشق بين نور الدين وبينهما فلم يجد سبيلاً إلى الدفاع عنها، واستطال الإفرنج على دمشق بعد ملكهم عسقلان... وكان بها يومئذ مجير الدين واهن القوى مستضعف القوة فخشى نور الدين عليها من الإفرنج... وبدأ أمره بمواصلة مجير الدين وملاطفته... وكاتب جماعة من أحداثها فلما وصل ثاروا بمجير الدين... وملك نور الدين المدينة»، وذلك فى مطلع سنة ٥٤٩هـ - ١١٥٤م.

أصبحت دمشق عاصمة نور الدين، فبدأت المرحلة الثانية من تاريخه الحافل، وهى مليئة بالانتصارات والإنجازات على مدى عشرين سنة. وقد عبرت عن نضج الصحوة، ومهدت ليومى حطين والقدس. وهى تستحق حديثًا خاصًا نقف به عندها.

● ● ●

٦ - عن نور الدين والرئاسة الصالحة والنصر

. ما أعظم الجهد الذى بذلته أُمتنا بعد إفاقتها وهى تجاهد الغزاة الإفرنج كى تصل إلى يومى حطين والقدس. وما أروع ما حققه هذا الجهد بقيادة نور الدين محمود بعد أن أصبحت دمشق عاصمته سنة ٥٤٩هـ - ١١٥٤م، وما أفيد دراسة هذه الفترة، وأمتع العيش مع سيرة نور الدين العظيم وهو يقود جهاد الأمة على مختلف الصعد.

إن دراسة هذه الفترة تبين الصلة الوثيقة بين الأمة حين تفيق وتصحو وتنهض وقيادتها التى تُعبِّر عن ذلك كله وقائدها الذى يُجسِّد الرئاسة الصالحة. ورحم الله الوزير نظام الملك الذى رأى أن الحرمان من الرئاسة الصالحة غضب من الله وخذلان، ورحم الله الفارابى الذى قال: إن نسبة الرئيس إلى المدينة الفاضلة كنسبة القلب إلى الأعضاء، أو كنسبة السبب الأول للموجودات... هكذا المدينة الفاضلة فإنها متعلقة بوجودها وشرائعها وكمالها برئيسها الأعلى، ولابد أن يتصف هذا الرئيس بكمال العقل وبقوة المخيلة، وتقدم دراسة هذه الفترة لنا فيما تقدم مثلاً للحكم بالإسلام وما يتضمنه من قيم العمران البشرى، وكم هو مفيد أن

يتعرف عليه ويقف أمامه أولئك الذين لا يعرفون حكمًا بالإسلام حدث بعد الخلافة الراشدة؛ لأنهم لم يدرسوا تاريخهم.

لقد ألحت عليّ كلمتا نظام الملك والفارابى مع كلمات أخرى لفلاسفة من مختلف الأمم حول الرئاسة الصالحة؛ لأن نور الدين قدم المثل الحى على هذه الرئاسة الصالحة، وحين فكَّرتُ فى كيفية عرض هذه الفترة من تاريخنا بإيجاز وهى حافلة، وجدتُ أن خير مدخل لهذا العرض التأمل فى ما كتبه مؤرخونا عن الرجل حين انتهى بهم الحديث إلى وفاته سنة ٥٦٩هـ وإجمال أعماله، ونختار نموذجًا لما كتبه صاحب «الكامل فى التاريخ».

●●●

يقول ابن الأثير: «فى هذه السنة (٥٦٩هـ - ١١٧٤م) توفى نور الدين محمود بن زنكى بن آق سنقر - صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر..» ونقف أمام هذه الرقعة الجغرافية لنلاحظ أن وحدةً فعلية قامت بين هذه البلاد لأول مرةٍ منذ أن ابتليت الشام والجزيرة بتطاحن القواد السلاجقة الذين حكموا مدنهما فى ظل وحدة اسمية تحت اللواء العباسى، وتباعدت الشقة بين بغداد والقاهرة بفعل وجود خلافتين عباسية وفاطمية. وقد سجل ابن خلدون هذا الحدث فى تاريخه بقوله: «وكان قد اتسع ملكه، وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن ملكها سيف الدولة ابن أيوب».

ويقـول ابن الأثيـر: «وكان مـولده سنة ٥١١هـ - ١١١٧م، وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله. وقد طالعت سير الملوك المتقدمين، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحريًا منه للعدل، وقد أتينا على كثير من ذلك فى كتاب الباهر من أخبار دولتهم».

ونقف أمام صفة العدل التى أبرزها ابن الأثير وأجمل بها صفات أخرى، وقد انطلق منها ليتحدث عن «زهده وعبادته وعلمه، فإنه كان لا يأكل ولا يشرب ولا يتصرف فى الذى يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين. ولقد شكت إليه زوجته الضائقة، فأعطاها ثلاثة دكاكين فى حمص كانت له، منها يحصل له فى السنة نحو عشرين دينارًا، فلما استقلتها قال: «ليس لى إلا هذا، وجميع ما بيدى أنا فيه خازن للمسلمين، لا أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنم لأجلك»..

وكان يصلى كثيرًا بالليل، وله فيه أوراد حسنة... وكان عارفًا بالفقه على مذهب أبى حنيفة ليس عنده فيه تعصب، وسمع الحديث وأسمعه طلبًا للأجر»، ونقف أمام البعد عن التعصب الذى هو من سمات العلم، ونذكر قوله حين بلغه أن فقهاء حلب اختلفوا مرة فى اختيار شيخ لمدرسة: «نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع من هذه البلدة، وإظهار الدين، وهذا

الذى جرى بينكم لا يحسن ولا يليق».

وأشار عليهم بأن يتولى كل من الشيخين المختلف عليهما مدرسة يُدرس فيها. وأما عدله فإنه لم يترك فى بلاده، على سعتها، مكسًا ولا عُشرًا، بل أطلقها جميعها فى مصر والشام والجزيرة والموصل. وكان يعظم الشريعة، ويقف عند أحكامها، وبنى دار العدل فى بلاده، وكان يجلس هو القاضى فيها ينصف المظلوم، ولو أنه يهودى، من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده.

وأما شجاعته فإليها النهاية، وكان فى الحرب يأخذ قوسين وتركشين (أى كنانتى سهام) ليقاتل بها، فقال له القطب النشاوى الفقيه: «بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين، فإذا أصبت فى معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف»، فقال له نور الدين: «ومن محمود حتى يقال له هذا؟ من قبلى من حفظ البلاد والإسلام؟ ذلك الله الذى لا إله إلا هو»، وأما ما فعله من المصالح، فإنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها، فمنها دمشق وحمص وحماه وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها، وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية، وبنى الجامع النورى بالموصل وبنى البيمارستانات (المستشفيات) والخانات (محطات القوافل) فى الطرق، وبنى الخناقاهات (الزوايا) للصوفية فى جميع البلاد، ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة، وكان يلزم العلماء وأهل الدين

ويعظهم ويعطيهم، ويقوم إليهم، ويجلبهم معه، ويتبسط معهم، ولا يرد لهم قولاً، ويكاتبهم بخط يده. وكان وقورًا مهيبًا من تواضعه، وبالجملة فحسناته كثيرة ومناقبه غزيرة لا يحتملها هذا الكتاب».

لقد أسهب أبو شامة فى كتابه «الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية» فى الإشادة بنور الدين ووصف مآثره، ومما ذكره أن نور الدين أمر بإسقاط ألقابه فى الدعاء على المنابر حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه. وقد أمر أن تكتب رقعة بهذا المعنى يسيرها إلى الأطراف، وكتب بخطه على أسفل الرقعة «مقصودى ألا يُكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال، أفرح بما لا أعمل؟ قلة عقل عظيم». وشبَّه أبو شامة نور الدين وصلاح الدين بالعمرين، واعتبرهما حجة من الله على الملوك المتأخرين وذكرى منه سبحانه فإن الذكرى تنفع المؤمنين..

ووصف مجلسه بأنه كان كما ورد فى صفة مجلس رسول الله (ﷺ) مجلس علم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم، فكان لا يذكر فيها إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشاورة فى أمر الجهاد وقصد بلاد العدو ولا يتعدى هذا. وتحدث النعيمى فى كتابه «الدارس فى تاريخ المدارس» عن دُور الحديث التى أنشأها نور الدين، كما نوه بأعماله الجليلة العماد الكاتب فى أول كتابه «البرق الشامى». وقد تتبع ابن خلدون أخباره وغزواته وأعماله، ومما أورده عنه أنه حين كان يغزو الإفرنج فى حارم «عزل نور الدين

رجلاً يعرف بابن نصرى تتصَّح له بكثرة خرجه بصلاته وصدقاته على الفقراء والفقهاء والصوفية إلى مصارف الجهاد، فغضب وقال: لا أرجو النصر إلا بأولئك فإنهم يقاتلون عنى بسهام الدعاء فى الليل، وكيف أصرفها عنهم وهى من حقوقهم فى بيت المال ذلك شىء لا يحل لى». وسجل ابن خلدون له أنه كان معتنيًا بمصالح المسلمين مواظبًا على الصلاة والجهاد متحريًا للعدل متجافيًا عن أخذ المكوس فى جميع أعماله، وقد وفق حسين مؤنس إلى رسم صورة دقيقة لنور الدين فى كتابه: «نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق» فى فصل صورة مجاهد، كما وفق محمود إبراهيم إلى الأمر نفسه فى كتابه عن شعر ابن القيسرانى الذى لازمه.

● ● ●

قام نور الدين بعد أن أصبحت دمشق عاصمته سنة ٥٤٩هـ بمتابعة غزواته لقلاع الفرنج، فاستولى على تل باشر فى السنة نفسها، وحاصر قلعة بهرام قرب أنطاكية سنة ٥٥١هـ، وحرّر نصف أعمال حارم، ثم استولى على حصن شيزر قرب حماه. وواجه بالإعمار ما خربته الزلازل التى وقعت بالشام، وخربت أكثر مدنه سنة ٥٥٢هـ، ثم استولى على بعلبك ومن بعدها على قلعة حارم سنة ٥٥٩هـ، فقلعة بانياس، ولم يلبث أن التفت إلى مصر التى كانت دولة العلويين فيها «قد أخذت فى التلاشى وصارت إلى

استبداد وزرائها على خلفائها» على حد تعبير ابن خلدون، وكان الصراع قد نشب بين شاور وضرغام، وقد استنجد الأول بنور الدين حين أخرجه الآخر من مصر، فاختار نور الدين من أمرائه لذلك «أسد الدين شيركوه بن شادى الكردى، وكان بحمص وجهزه بالعساكر، فسار لذلك فى جمادى سنة تسع وخمسين وابتعد نور الدين إلى أطراف بلاد الإفرنج فشغلها عن التعرض للعساكر، وسار أسد الدين مع شاور، وسار معه صلاح الدين ابن أخيه نجم الدين أيوب، وانتهوا إلى بلبيس»، كما يروى ابن خلدون، وشهدت مصر أحداثًا كثيرة بين عام ٥٥٩هـ و٥٦٤هـ انتهت بقتل شاور بعد أن قتل ضرغام، وبطرد الإفرنج عن مصر، وبتولى أسد الدين الوزارة للخليفة العاضد، ثم بقيام صلاح الدين ابن أخيه مكانه بعد وفاته، وهو فى طاعة نور الدين محمود، «فكتب نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بإقامة الدعوة العباسية بمصر والخطبة للمستضىء... فخطب للمستضىء العباسى، وانقرضت الدولة العلوية بمصر، وذلك سنة سبع وستين»، كما سجل ابن خلدون، وتابع نور الدين أثناء ذلك غزواته للفرنج فى حصونهم حتى انتقل إلى رحمة الله، وكان لدخول مصر فى دولة نور الدين دوىٌّ بعيد لا فى مملكته بيت المقدس وحدها، بل فى الغرب الأوروبى كله.

● ● ●

■ ■ حين نتأمل فى صورة هذا المجاهد الصادق الذى عبّر

عن الصحوة بأروع معانيها نجد أنفسنا أمام رجل مؤمن، وضع نصب عينيه حماية الدين وتوحيد البلاد، وعمل ما بوسعه لبلوغ ذلك بغية صدّ الغزاة الفرنجة، فنجح نجاحًا عظيمًا، وحقق الله الكثير على يديه، وكان إيمانه بعيدًا عن التعصب، وقد حارب الفرنجة؛ لأنهم غزاة وليس لأنهم من دين آخر، وكان يرعى النصارى من مواطنيه ويحميهم، وفرض إيمانه على أعدائه أن يحترموه، فكانوا كما روى أبو شامة يقولون: «إن لهُ مع الله سر». وقد اعترف وليم الصورى - مؤرخ مملكة بيت المقدس - بفضله وعدله وصدق إيمانه.

■ ■ نجد أنفسنا أيضًا أمام حاكم انطلق بهذا الإيمان فى سياسة تقوم على البناء، فكان أن توسع فى إنشاء المدارس، وكان شديد الاهتمام بأهل الحل والعقد، واعتنى بإنشاء المستشفيات وبحفظ الطرق، واعتمد العدل فى حكمه.

■ ■ نجد أنفسنا كذلك أمام قائد عسكرى حرص على أن يكون تكوينه العسكرى ممتازًا، ولم يكف أبدًا عن التدريب ودرس التخطيط العسكرى، وأبدع فى سياسة الجند وفق نظام عملى، كما أبدع فى سياسة القبائل البدوية، ووضع نظامًا محكمًا للاتصال ونقل الأخبار مستعينًا بالحمام الزاجل، ووفق إلى اختيار معاونيه فاعتمد على نفر من أكفأ القادة، وكان دائم التنقل بين أرجاء دولته، وقد أظهر مهارة فى شؤون الإدارة والمال معتمدًا

الشرع أساسًا للحكم.

■ ■ نجد أنفسنا أمام إنسان يعطى بيته حقه من الرعاية يتكلم العربية، وقد استعرب لسانًا وقلبًا، طويل القامة وسيم القسمات.

■ ■ بقى أن نقول: إن صورة هذا المجاهد الصادق رمزت إلى صورة مجتمعه الذى عاش الولادة الجديدة، وتبنى عقيدة الجهاد ذودًا عن الوطن وصدًا للغزاة المعتدين، وصورة هذا المجتمع تستحق حديثًا خاصًا.

● ● ●

لا أذكر أننى حللت بدمشق زائرًا إلا ووجدت نفسى منجذبًا لزيارة المدرسة النورية، حيث أستذكر تاريخ نور الدين، وأقرأ الفاتحة عن روحه الطاهرة، وأرى من خلال سيرته قدرة أمتنا على صد الغزاة الصهاينة إذا تبنت عقيدة الجهاد، وسارت فى الطريق إلى حطين والقدس.

● ● ●

٨ - عن تنظيمات الفرنجة الدينية العسكرية

أكتب وانتفاضة شعبنا العظيمة فى أُسبوعها الثانى والثلاثين ونحن نعيش أجواء عيد الفداء فى «زمن الانتفاضة»، وقد شهدت منطقتنا يوم الإثنين ١٨/ ٧/ ١٩٨٨ حادثًا له ما بعده هو إعلان إيران قبولها غير المشروط قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨، وما أعظم الخير الذى سيعم منطقتنا وما أروع المناخ الذى سيحيط بالانتفاضة إذا انتهت الحرب العراقية - الإيرانية، فلتتكثف الجهود لكى يأخذ هذا الحادث مداه، ويبلغ غايته، ويعم السلام الخليج، ولِتَعُمَّ روح الانتفاضة.

وجدت نفسى مدعوًا وأنا أُتابع أخبار الانتفاضة هذا الأسبوع إلى أن أُولى موضوع المستعمَرين المستوطنين الصهاينة اهتمامًا خاصًا، فالدور الذى يقومون به فى العدوان على أهلنا والجرائم التى يقترفونها يوميًا تطرح موضوعهم بقوة، وقد جاءت مصدقة لما توقعناه منذ الشهر الأول للانتفاضة على صعيد العدو من نزوع إلى أقصى درجات التطرف، رأينا أنه سيحدث وبخاصة بين هؤلاء المستعمرين المستوطنين، وأذكر أننا فى توقعنا هذا استحضرنا ما حدث حين صحا قومنا إبّان الغزو الفرنجى فظهرت فى أوساط

الفرنجة تنظيمات متطرفة أشهرها فرسان «الاسبتارية» وفرسان «الداوية» كما أسماهم أجدادنا.

دعانى تفكيرى فى هذا الموضوع وأنا أعيش أجواء عيد الفداء فى زمن الانتفاض فى هذا الصيف الحار أن أُراجع ما كتبته قبل عام بمناسبة ذكرى مضى ثمانية قرون على انتصارنا فى حطين، وأنصرف إلى قراءة ما حفظه تاريخنا عن هذه التنظيمات المتطرفة كى نستخلص عبرًا تساعدنا على معالجة الموضوع، ورأيت أنه قد آن الأوان لأتابع أحاديثى التى تحمل عنوان «فى الطريق إلى حطين والقدس» ونصب عينى أن تصل بنا الانتفاضة وقد سلكت هذا الطريق إلى حطين والقدس بإذن الله.

كثيرة هى أوجه المشابهة بين المستعمرين المستوطنين الصهاينة وفرسان الفرنجة الغزاة، ونحن نجدها فى المنشأ والمسار والدور، وسنجدها - إن شاء الله - فى المصير حين تبلغ الانتفاضة هدف التحرير.

جاءت نشأة تنظيمات فرسان الفرنجة بعد أن حلت بأمتنا نكبة سنة ١٠٩٩م - ٤٢٩هـ، وقامت «مملكة أورشاليم اللاتينية»، وكانت هذه المملكة مملكة غزاة غرباء عن المنطقة، وقد حُرِّم فيها المذهب الأرثوذكسى الشرقى الذى يتبعه إخوتنا النصارى العرب، وقد كان فى المملكة كثير من أسباب الضعف فظهرت الحاجة فيها إلى وجود تنظيمات تعاون حكامها الغزاة، وبخاصة بعد أن ظهرت

مقاومة قومنا للغزوة الفرنجية التى تفننت فى الظلم حتى أخذ سكان البلاد النصارى - كما يقول ول ديورانت فى قصة الحضارة - «ينظرون بعين الحسرة إلى الحكم الإسلامى، ويعدونه من العصور الذهبية التى مرت بالبلاد».

كان تنظيم فرسان مستشفى القديس يوحنا هو الأول فى النشوء، فقد نظّم «ريموند دوبى» العاملين فى مستشفى فرنجى يحمل اسم القديس يوحنا، وجعلهم هيئة دينية عسكرية حوالى عام ١١١٨م، وكان بعض التجار الفرنجة قد حصلوا على إذن عام ١٠٤٨م من الحكم الإسلامى لبناء هذا المستشفى كى يؤوى الفقراء والمرضى من الحجاج النصارى الأوروبيين، واشتهر أفراد هذه الهيئة الدينية فى الغرب باسم فرسان القديس يوحنا، أما أهلنا فأسموهم «الاسبتارية» نسبة للمستشفى، وحدث بعد ذلك بقليل عام ١١١٩م أن حصل «هيو دو بايان» الفارس الفرنجى الذى دخل فى سلك الرهبنة على مسكن من بلدوين الثانى ملك القدس بالقرب من الموضع الذى كان فيه هيكل سليمان وأنشأ تنظيمًا أسماه «فرسان المعبد» وعرفه أهلنا باسم «الداوية»، واعترفت الكنيسة الكاثوليكية بهذا التنظيم، ووضع له القديس «برنار» نظامًا صارمًا يتضمن حلق الرؤوس وعدم الاغتسال إلا نادرًا، وكان يُحرِّض فرسان المعبد على أن يقتلوا وهم مرتاحو الضمير، واعتمد «الاسبتارية» لبس مئزر أسود على كمه الأيسر صليب، أما «الداوية» فكانوا يلبسون مئزرًا أبيض على حرملته صليب أحمر،

ثم حدث فى عام ١١٩٠م أن أنشأ الألمان «الفرنجة» طائفة الفرسان التيوتون، وشادوا لهم مستشفى قرب عكّا.

قامت هذه التنظيمات بدور خاص فى حروب الفرنجة، وكانت كل من الاسبتارية والداوية تكره الأخرى كرهًا مبعثه التعصب، وقد احتلتا معًا مكان الصدارة والزعامة فى نشاط الرهبان الفرسان، وأصبح لهما شأن ظاهر فى المعارك، وذاعت أخبار الفظائع التى يقومون بها، وساعد على خطورة الدور الذى نهضوا به كما يقول «سعيد عاشور» أنهما تمتعا باستقلال ذاتى فلم تخضعا لملك الفرنجة فى بيت المقدس، وإنما تبعتا بابا روما مباشرة، وعظمت ثروات هذه التنظيمات فبنوا مجموعة قلاع وحصون اتخذوا منها معاقل لهم، واتصفت أعمالهم بالعنف والضراوة والتعصب والتطرف، وانطلقوا فى القيام بعدوانهم المتصل على أهل البلاد من عقيدة مشبعة بالكراهية، وكانوا يقتلون كل أسير من المسلمين يقع بين أيديهم، ولا يحترمون موثقًا، وينقضون العهود، وقد جمعوا أموالاً طائلة فتملكوا أيضًا فى أوروبا، وعاشوا فى قلاعهم وحصونهم حياة ترف وسط متاعب الحروب، «مع إنهم كانوا قد نذروا أنفسهم للفقر»، كما يلاحظ ديورانت.

أصبحت هذه التنظيمات مع الزمن وازدياد قوتها فى أوساط الفرنجة دولة داخل دولة، وأخذت مع مرور الوقت تتدخل فى أمور

كثيرة، وتتخذ مواقف منفردة، الأمر الذى أثار تناقضات حادة فى أوساط الفرنجة وكان على المدى الطويل من أسباب انهيار البناء الذى أقاموه فى بلادنا، كما يقول بعض المؤرخين الأوروبيين.

كان طبيعيًا أن يتصدى أهلنا لهؤلاء، وأن ينزلوا العقاب بهم على ما اقترفته أيديهم من جرائم حين دارت الدائرة عليهم، ويذكر ابن الأثير فى «ذكر انهزام الفرنج بحطين» كيف أسر صلاح الدين عددًا من قادة الفرنج من بينهم «مقدم الداوية، وكان من أعظم الفرنج شأنًا»، وأسر المسلمون «جماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية، وكثر القتل والأسر فيهم..» وكان من بين أسرى صلاح الدين أرناط صاحب الكرك «ولم يكن فى الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين»..

ويقول القاضى ابن شداد فى «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»: «وأما مقدمو الاسبتار والداوية فإن السلطان اختار قتلهم، فقتلوا عن بكرة أبيهم، وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك أنه كان عبر به بالشوّيك قَفَل من الديار المصرية فى حالة الصلح، فنزلوا عنده بالأمان، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله والصلح الذى بينه وبين المسلمين، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبى (ﷺ)، وبلغ ذلك السلطان، فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله، ولما فتح الله عليه بالنصر والظفر، جلس السلطان فى دهليز الخيمة

فإنها لم تكن نُصبت، والناس يتقربون إليه بالأسرى، وبمن وجدوه من المقدمين».

ويمضى ابن شداد فى وصفه هذا المشهد فيقول: «ونصبت الخيمة، وجلس فرحًا مسرورًا شاكرًا لما أنعم الله عليه، ثم استحضر الملك جفرى وأخاه البرنس أرناط، وناول الملك جفرى شربة من جُلاب بثلج، فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناول (الملك الفرنجى) بعضها البرنس أرناط فقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذى تسقيه وإلا أنا ما سقيته، وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال مَنْ أسره أمن، فقصد بذلك الجرى على مكارم الأخلاق... واستحضر السلطان البرنس أرناط، وقال له: «ها أنا أستنصر لمحمد (عليه الصلاة والسلام)، ثم عرض عليه الإسلام، فلم يفعل. ثم سلّ النمجاه (الخنجر المقوس) وضربه بها، فحلَّ كتفه وتمّم عليه من حضر، وعجّل الله روحه إلى النار».

لنا أن نقف أمام هذا المشهد متأملين، وسنلاحظ أن أرناط كان قد نقض العهود مرارًا، وهدد بغزو البيت الحرام بعد أن تحصَّن بالكرك، وكان معروفًا عن صلاح الدين أنه كما يقول ابن الأثير: «كثير العفو يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه فيعفو ويصفح»، وقد نجم عن ذلك أحيانًا عودة من صفح عنهم من الداوية والاسبتارية إلى حربه، الأمر الذى دفع ابن الأثير إلى

التعليق على ما جرى فى صور وكوكب بعد حطين بالقول: «وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين فى إطلاقه كلَّ من حصره حتى عضَّ بنانه ندمًا»، ولكن الله أنعم عليه بفتح كوكب وصفد وبالسير من ثم إلى بيت المقدس فعيَّد فيه عيد الأضحى سنة ٥٨٤هـ، ويلفت نظرنا فى رواية ابن شدَّاد تقديم الجلاب المثلج بالثلج فى شهر تموز/ يوليو البالغ القيظ، الأمر الذى يدل على مدى تقدم جيش العرب المسلمين فى النواحى الإدارية.

لقد كان مصير هذه التنظيمات الدينية العسكرية الفرنجية إلى سوء الختام، فبعد أن انتصر عليها قومنا وهزموها، فرَّ فرسان المعبد الداوية إلى قبرص ورودس، وأصبحوا يعرفون باسم فرسان رودس، وظلوا يحكمون الجزيرة حتى طردهم منها العثمانيون عام ١٥٢٢م، فانتقلوا منها إلى مالطة، وعاد بعضهم إلى بلاده الأوروبية، وحاول فرسان المعبد أن ينافسوا الملوك فى الحكم فكان أن قبض فيليب الرابع الجميل عام ١٣١٠م على جميع من كان فى فرنسا منهم دون سابق إنذار، وصادر أملاكهم واتهمهم بأفظع التهم وأذاقهم من ويلات التعذيب، ثم أحرق من لم يمت منهم، وأيد رجال الدين الفرنسيون الملك فى موقفه، على الرغم من احتجاج البابا، وتم إلغاء نظام فرسان المعبد عام ١٣١٢م.

● ● ●

إن استحضارنا لنشأة الاستعمار الاستيطانى الصهيونى فى

بلادنا فلسطين منذ بداية الغزوة الصهيونية وتتبعنا لمساره، وتأملنا فى الدور الذى يقوم به، يصل بنا إلى وضع أيدينا على أوجه المشابهة بينه وفرسان الفرنجة الغزاة، ويلفت النظر أن مرحلة ما بعد ١٩٦٧م فى الغزوة الصهيونية شهدت انتعاش فكرة الاستعمار الاستيطانى الصهيونى، والعمل على اغتصاب جُلّ الأراضى العربية التى تم احتلالها، وظهرت على الساحة تنظيمات عسكرية صهيونية دينية من بينها غوش أمونيم وكاخ وظهر أمثال الحاخام كاهانا والحاخام بيرلتغر، وها هم المستعمرون المستوطنون الصهاينة ينتقلون فى مسارهم من التطرف إلى أقصى درجات التطرف، ويقترفون أبشع الجرائم ضد أهلنا تحركهم عقيدة عنصرية تقوم على الكراهية والجشع والعدوان.

طبيعى أن نتصدى اليوم للاستعمار الاستيطانى الصهيونى كما تصدى أجدادنا من قبل لتنظيمات الفرنجة الدينية العسكرية، ولابد أن نضع نصب أعيننا معاقبة كل مستعمر مستوطن صهيونى على ما اقترفته يداه من جرائم، وثقتنا أن أمتنا المتمثلة روح الانتفاضة ستكون قادرة على ردع عدونا، تمامًا كما أننا واثقون من أن انتفاضة شعبنا العظيمة قادرة على مواجهة هؤلاء المستعمرين المستوطنين الصهاينة، وهى تُدلّل كل يوم على هذه القدرة بأشكال مختلفة.

إن ما تنتظره الانتفاضة منا ونحن نستخلص عبر جهادنا

الغزو الفرنجى أن نلتزم الطريق الذى سلكه أجدادنا إلى حطين والقدس، ونتجمَّل بالصبر ونحن نقوم بفريضة الجهاد. ولا نتزحزح قيد أُنملة عن اعتبار الغزاة غزاةً، وتسمية الاستعمار الاستيطانى الصهيونى باسمه، والغزاة الصهاينة لم يكونوا قط شعبًا تمامًا، كما أن اليهود ليسوا شعبًا، وإنما هم أتباع دين ينتمون إلى أوطان كثيرة هم مواطنون للدول التى يقومون فيها، وليس لهؤلاء الغزاة الصهاينة أية روابط تاريخية بوطننا فلسطين.

إننا لا نزال فى مرحلة مواجهة مع عدونا، وستستمر هذه المرحلة إلى أن يسلم بحقوقنا. ولا مجال قبل أن يفعل ذلك لأى انشغال عن متطلبات المواجهة، ولا مجال بعد أن يفعل ذلك - وسيفعله بإذن الله - لأن ننفى عنه صفة المستعمر المستوطن الصهيونى، وحاشا لأحد منّا أن يقر بوجود شعب يهودى له دولته؛ لأن ذلك يتنافى مع الحقيقة، ولنركز جهودنا على هزيمة التنظيمات الصهيونية العسكرية الدينية، كما هزم أجدادنا الاسبتارية والداوية، ولنتوقع لهذه التنظيمات المصير الذى انتهت إليه تنظيمات الفرنجة.

■ ● ■

الفهرست

هذا الكتاب

يسعد مركز الإعلام العربى أن يفتتح سلسلة «كراسات القدس» بهذه الدراسة التى سطرها المفكر الفلسطينى الراحل الدكتور/ أحمد صدقى الدجانى، والتى جاءت تحت عنوان:

«الطريق إلى حطين والقدس»

ولعل قيام «لجنة الحفاظ على تراث أحمد صدقى الدجانى (رحمه الله)»، باختيار مركز الإعلام العربى لنشر هذه الدراسة من جديد هو تكريم للمركز الذى كرّس جل همه للقدس وللأقصى كرمز وجوهر للقضية الفلسطينية.

لقد سبق للمركز أن افتتح سلسلته الأولى عن القضية الفلسطينية «كتاب القدس» بكتاب الراحل الكبير «الخطر يتهدد بيت المقدس»، ثم عاد ونشر فى نفس السلسلة كتابه الثانى «القدس وانتفاضة [illegible] الأقصى وحرب العولمة»، وهو بعد نشره لهذه الدراسة يَعِدُ لجمع ونشر كل ما كتبه الراحل الكـ[illegible] عن القدس.. نسأل الله أن يتغمد فقيدنا، و[illegible] فلسطين بواسع رحمته، ويسكنه فسيح جناته، وأ[illegible] أمته بما كتب، ويجعله عملاً موصولاً له با[illegible]

صلاح عبد ا[illegible]

مركز الإعلام العربي
ت: ٧٤٤٥٤٥٥ - ٣٨٤٤٤٢٢ (٢٠٢+) - ف: ٣٨٥١٧٥١ (٢٠٢+)
e.mail:media-c@ie-eg.com